آفاق

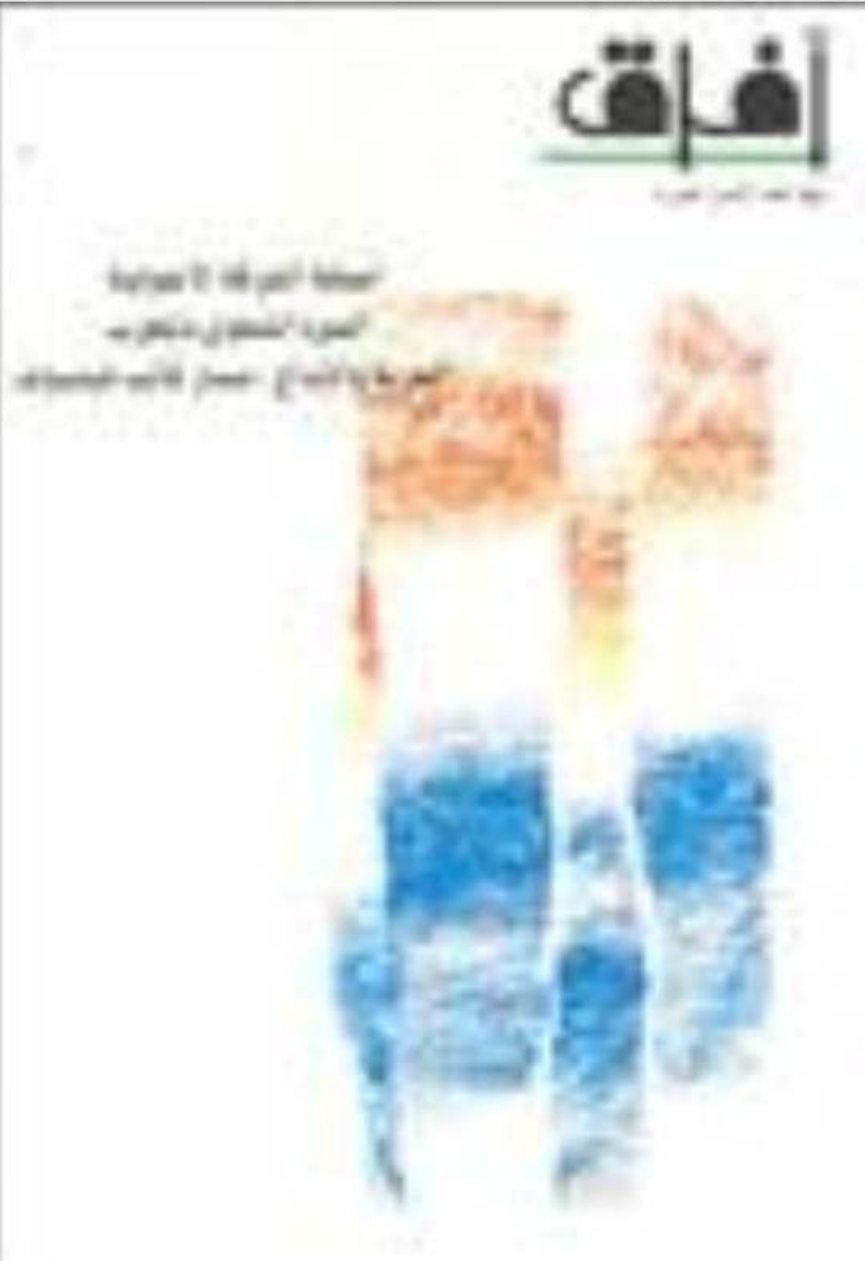

الفكر المتحرك

■ عبد الكريم غلاب

أعترف بأنه يعز علينا أن نجتمع في حلقة ثقافية فكرية دون أن يكون محمد عزيز الحبابي بيننا أو مترئسها. ذلك أننا منذ أن عرفنا عزيز الحبابي، ولعلي من أقدم الذين ربطتهم رابطة المعرفة معه. منذ عرفناه وهو يبحث عن المنتديات الفكرية ويبدعها ويخلقها خلقاً ليكون رائدها والمتحدث فيها. فإذا ما غاب عن هذه الجلسة الثقافية، فلأن الموت أكبر من أن يطاق وأكبر من أن يتغلب عليه. ولكن عزيز الحبابي لم يمت وإنما ترك في بلده وبين تلامذته وإخوانه الذين أصبحوا جميعهم أساتذة، وأساتذة كباراً، ترك فيهم ما لا يمكن أن يختطفه الموت: الفكر المتحرك.

عزيز الحبابي كان دائماً، منذ صغره، فكراً متحركاً وأذكر أنني، منذ عرفته ووقعت عيناي عليه كان وهو يناولني كتاباً ويأخذ مني كتاباً. منذ ذلك الوقت، كانت الصلة بيننا هي الكتاب، هي الفكر، هي القراءة، هي المناقشة، هي الحوار.. ومنذ ذلك الوقت حتى آخر لحظة من حياته، كان دائما يحرك السواكن. وكان دائماً يفكر ويجعل الآخرين يفكرون معه. وهذه هي ميزة عزيز الحبابي في كل محفل قام فيه، في كل محفل حضره، في كل ندوة حضرها لم يكن يلقى الكلام ليُسمع كلامه ولكن كان يلقي الكلام ليحاوِر ويحاوَر. ولعله كان يقصد إلى أن يستفز الفكر دائماً ليجعل المعارضين له أكثر من المقبلين عليه. ولذلك كان يبتهج كلما عارضه الآخرون. وكان يستحث فكره أيضاً ليعارضه حتى تنشأ المعركة بينه وبينهم وكانت دائما معركة فكرية ولم تكن مطلقاً معركة كلامية ولا معركة شخصية.

هكذا كان عزيز الحبابي.

ومنذ عدت من مصر وعاد من باريس، ولعل ذلك كان في أوائل الاستقلال، حينما عاد من باريس وقد عدت قبله بكثير، التقينا في درب واحد. سكنا في دارين متقابلتين، ولذلك كان يسهل علي أن ألتقيه في كل لحظة وكان يسهل عليه أن يلتقي بي في كل لحظة ولعل في منتصف هذا الطريق الضيق، نبتت فكرة «اتحاد كتاب المغرب» و«دار الفكر» وداره كانت هي الأولى دار الفكر. كان يجمع حوله كل المفكرين وكانوا قلة آنذاك. كان يجمع حوله كل الأساتذة وكانوا قلة آنذاك. كان يجمع حوله كل براعم الكتاب وكانوا قلة آنذاك. كان يجمعهم حوله ليفكروا معه وليقرأوا وليبحثوا وليناقشوا. ومنذ ذلك الوقت.. منذ تلك الساعات الحرجة في تاريخ حياة بلادنا، نبتت في ذهنه فكرة إنشاء «اتحاد كتاب المغرب العربي». وكانت فكرة رائدة حقاً ولكنها كانت فكرة صعبة التحقيق. لأن المشاكل كانت أكثر من أن تحتمل وجود اتحاد كتاب للمغرب العربي آنذاك.

ولعل هذه الفكرة الرائدة، كانت رائدة في العالم العربي جميعه. فلم يكن هناك أي اتحاد للكتاب في كل البلاد العربية. بل كان المغرب في مقدمة الذين أنشأوا «اتحاد الكتاب» وتبعته معظم الدول العربية بعد ذلك، ثم أنشئ «اتحاد كتاب العرب» وكان الدكتور الحبابي في مقدمة منشئيه.

والدكتور الحبابي، لم يقتصر عمله على «اتحاد الكتاب» بل كان يأخذ من «اتحاد الكتاب» ومن «دار الفكر»؛ كان يأخذ منهما مكاناً لتحريك السواكن - كما قلنا -. ولذلك كان يجمع حوله ندوة في كل أسبوع. وكان كسكس الأربعاء مناسبة طيبة تجمع حول هذه المائدة البسيطة المتواضعة مجموعة من الذين يستطيعون أن يفكروا وهم يأكلون ويستطيعون أن يفكروا وهم جياع..

وكان الدكتور الحبابي بأفكاره هذه البسيطة، التي كانت أحياناً تثير بعض النقد. كان بأفكاره هاته يخلق مجالات للحوار وللمناقشة وللبحث وللعمل وللفلسفة. و«اتحاد الكتاب» في مقدمة أعماله لا يترك كتاباً يصدر إلا ويدعو د. الحبابي إلى مناقشته ويدعو الذين يثيرون حول هذا الكتاب كثيراً من الجدل - وكان في مقدمة الذين يجادلون وينقدون، وكان في مقدمة الذين يُجادَل عنهم - إذ صح التعبير - وينتقدون. وكانت كتبه في مقدمة ما يقدمه للمشرحة. وكان بذلك يعطي المثل للناقدين أيضاً، لأن الإجتماعات أو الحوارات أو هذه اللقاءات الفكرية، كانت مدرسة تعلم فيها الكثيرون كيف يقرأون الكتب وكيف ينقدونها.

كثيرة هي أعمال د. الحبابي التي لا نستطيع في هذه الأمسية المحدودة الزمن أن نحددها. ولكن د. الحبابي كان مع ذلك أستاذاً؛ أستاذاً في الكلية. والكلية لم تكن عنده

مدرسة وإنما كانت كلية حقيقية. كان كمدارس المفكرين والفلاسفة اليونانيين، لا يجتمع حوله التلاميذ ليلقنهم مبادئ الفلسفة أو تاريخ الفلسفة أو كيف فكر الآخرون منذ آلاف السنين وكيف كتب الآخرون الفلسفة. ولكنه كان يعلمهم كيف يفكرون في الفلسفة، ولذلك كانت دروسه عبارة عن أفكار يعرضها على طلبته يناقشونه فيها ويناقشهم فيها ويخرج سعيداً من الدرس وقد آستطاع أن يجعل منهم طلبة علم.

كان يخرج من الكلية، كما كان يخرج من الأكاديمية بعد ذلك وينادي على أصدقائه؛ هل منكم من يستطيع أن يمشي. وكنا نجاريه في المشي، كنا نجاريه ولو أنه أحيانا كان يعجزنا لأنه يطلب منا أن نسير أكثر مما نطيق ولكنه مع ذلك كان السير معه لذيذاً وجميلاً، وكان ممتعاً، لأنه كان يفكر معنا ويدفع بنا إلى أن نفكر.. وكانت المرحلة التي نقطعها من الكلية إلى داره أو من مكان آجتماع الأكاديمية إلى الفندق كانت مدرسة.. كانت فصلاً من فصول الكلية.. نسير فيها ونحن نفكر. ونحن نناقش، ونحن نعرض لأفكار جديدة أحيانا، طريفة أحيانا. ولكنها كانت دائماً كالدكتور الحبابي جليلة دائماً وطريفة دائماً.

وقد ذكرتني حواراته ونحن نمشي بالمشائين القدماء (لعله أخذ منهم الدرس وكان منهم وكان أصدقاؤه من هؤلاء المشائين الذين يفكرون وهم يمشون).

وفي أكاديمية المملكة المغربية. في الأكاديمية حقيقة، كانت وما تزال هذه الأكاديمية، يمكن أن نقسمها إلى قسمين: قسم هادئ، مستقر الرأي يقرأ بحثه ولكنه لا يتحرك صوته؛ وقسم كان يثير المشاكل ويثير الجدل ويثير الحوار ويثير أحيانا الصخب، وفي مقدمة هؤلاء الذين كانوا يثيرون الصخب والجدل د. الحبابي. فما من جلسة عامة أو خاصة إلا ود. الحبابي كان رائداً فيها، كان شجاعاً فيها. كان يعلن فكره ولو تقبل في سبله ما تقبل من كلمات نابية أحياناً وكلمات لا أستطيع ماذا قيل للدكتور الحبابي ولكنه مع ذلك كان يبتسم لأنه استطاع أن يحرك القاعة والقاعة كانت معه دائماً. وكان د. الحبابي في الأكاديمية لا يسكت ولا يستمع فقط إنما يحرك دائماً بكلماته وبتدخلاته العديدة، يحرك دائماً الأفكار الساكنة الجامدة، وكان بذلك أكاديمياً بكل معنى الكلمة، لم يكن أكاديميا جامداً وإنما كان أكاديمياً متحركاً.

الدكتور الحبابي لم يكن يفكر وهو جالس على مقعده أو على كرسي الدرس، وإنما كان يفكر بقلمه أيضاً، كان كاتباً. لا يمكن مطلقاً أن يفكر في شيء إلا كتبه، وهذا هو الذي جعل من مفكرنا الكبير كاتباً كبيراً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور الحبابي كتب في الفلسفة، واعتبره الكثيرون فيلسوفاً ليس غير. ولكنه كان أديباً إلى جانب كونه فيلسوفاً، في كلماته وفي تدخلاته وفي أحاديثه، كان يبرز كأديب أكثر مما يبرز كفيلسوف.. وكان في كلماته من الوعي بجمال الكلمات وبجمال الأشعار وبالمنطلقات الإنسانية ما جعل منه أديباً متميزاً. ولكنه كان إلى جانب هذا وهو المفكر والعالم يخلط ويمزج بين الفلسفة والإبداع.

ولذلك حينما نقرأ كتبه الإبداعية شعراً أو رواية، نشعر أنه كاتب متميز ليس كأولائك الكتاب المبدعين الذي يعطون كل ما عندهم إبداعاً ولكنه كان يعطي كل ما عنده فكراً وإبداعاً في نفس الوقت، وهذه ميزة أخرى من مزايا الدكتور الحبابي.

الدكتورالحبابي حينما فقدناه، فقدنا كل هذا الذي تحدثنا عنه وكل هذا الذي سيتحدث عنه الآخرون. فقدنا فيه الرجل الذي ملأ زمانه ومكانه.. الرجل الذي كون أصدقاءه وطلبته.. الرجل الذي لم يكن يستطيع أن يجلس وحده وإنما كان دائما معه فكرٌ يحاوره، إذا لم تجد رجلاً أو سيدة يحاورهما اتخذ من قلمه محاوراً ومن قرطاسه محاوراً.

هكذا كان الدكتور الحبابي

وقد فقدنا ليس فقط أخاً عزيزاً ولا عالماً ولا مفكراً وأديباً، ولكن فقدنا أيضا الرجل الذي ترك بصماته على كل الحركات الفكرية في هذه البلاد منذ أزيد من 40 سنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته وعوضنا وعوض آله خيراً، وجعل من طلبته مشائين يسيرون على منواله.

والسلام عليكم ورحمة الله.